

## الزهد الاسلامى وتطوره إلى التصوف منذ القرن الثانى حتى القرن الرابع الهجرى

يوسف هادى پور نهزمى\*

### الملخص

قد يتساءل الكثيرون عن نشأة الزهد والتصوف وتطورهما بعد ظهور الدين الإسلامى الحنيف كما أن هناك آراء متباينة حول تقديم الزهد على التصوف أو التصوف على الزهد. إلا أن هناك دلالات تاريخية تنم عن تقدم الزهد على التصوف وتحرك النزعة الصوفية فى إطار التدين ثم فى إطار الزهد إلى أن أصبحت نهجا روحيا.

ومن هذا المنطلق يلقي هذا المقال الضوء على هذه القضايا الإسلامية الهامة التى طالما شغلت أفكار الباحثين والنقاد ليزيل الستار عن مجهولات هذه العلوم الإسلامية التى أسفرت عن كم هائل من الفنون الأدبية شعرا ونثرا وكانت ولم تزل تدرس فى الجامعات.

الكلمات الدليلية: الدين، الخوف الإسلامى، الزهد، التصوف.

\*. أستاذ مساعد بجامعة آزاد الإسلامية فى كرج (استاديار دانشگاه آزاد اسلامى واحد كرج).

## المقدمة

بعث الله رسوله (ص) ونزل عليه القرآن ليكون للناس فرقانا. وأكمل دين الحق ليقود الناس في حياة الدنيا ويهديهم إلى جنّته الخالدة؛ فأخذ الناس من ينابيع هذا الدين نصيبهم، فمنهم من تمسك به في حياة الدنيا ومنهم من استخدمه ليكون سعيدا في حياة الآخرة ومنهم من اعتقد بأن الإسلام دين الدنيا والآخرة وفيه سعادة الدارين.

فاختلف الناس في تعبيرهم عن الواقع الديني، فنشأت هناك تعابير متعددة ومتضاربة عن الدين الإسلامي الذي يدعو إلى الخوف من الله تعالى والتجنب من عذابه. فلجأ كثير من الناس إلى التزهيد في الدنيا وما فيها ونرى آثار هذه التعابير وتبعاتها عند الكثيرين من الذين آمنوا بالله ورسوله في حياة الرسول صلى الله عليه وآله. وبعد أن وافاه الله، وانتشر القلق والاضطراب في الحكومة الإسلامية، توجه الناس أكثر بكثير من قبل إلى الزهد والفرار من الدنيا، خوفا من الله وخشية من الوقوع في المعصية وما يترتب على هذا الوقوع من العذاب والدخول في النار التي كانت الأبدان تقشعرُّ لها والأنفس ترجف منها خيفةً منها ومن صور العذاب وأنواعه وطمعا في جنة الله تعالى ونعيمه.

فهذا الزهد القائم على الخوف والرغبة من الوقوع فيما تُزَيِّنُه الشهوات، تطوّر في مفهومه في القرن الثاني للهجرة، من الخوف إلى الحبّ، ومن الرهبة إلى الشوق، ومن الحذر إلى الرجاء. وبعد أن كان هذا الزهد يتّجه إلى الله سبحانه وتعالى خوفا ورهبة من ناره، نجده بعد ذلك يتّجه إلى الله عزّ وجلّ حبا في ذاته، وعشقا لصفاته، لاطمعا في جنته، أي أنّ هذا الحبّ اتّجه إلى ذات الله، لأنّه، عزّ وجلّ، أحقُّ بهذا الحب. فلم يعد الله معبودا فقط، بل أصبح المعبود المحبوب.

فإذن القرن الثاني للهجرة كانت بداية نشأة التصوف وتطوّره الأوّل وقد أصبحت كلمة «الصوفي» تطلق على العابد الزاهد اللابس الصوف، حتّى إذا جاء القرن الثالث، وجدنا أنّ التصوف أصبح علما للنفس والأخلاق والفناء في وجود النفس والاتّحاد بالخالق. فقد قدّم الصوفية الكثير من الآراء، التي كان لها تأثير عظيم في مضامين الدين وفي تقديمهم للفكر الإنساني بوجه عام وللفكر الإسلامي بوجه خاصّ تحليلاً نفسياً ذا غاية



أخلاقية، كما قدّموا للفكر الفلسفي نظريات في الوجود ومباحث في المعرفة. فما أجمع الصوفية عليه، واتخذوا نحوه موقفاً موحدًا، هو تبيينهم للروح كمبدأ يُفسّر حقيقة الوجود في مجال النظر، وقدّموا معاني باطنة لشعائر الدين وعباداته من طهارة، وصلاة، وصوم، وزكاةٍ وحجّ. وجعلت هذه المعاني تظهر الشريعة الإسلامية بثوبٍ مميّز عن التوبّ الذي حاكه لها رجال الفقه وأصحاب التشريع.

فالتزعة الصوفية إذن تحرّكت أول ما تحرّكت في إطار التدين، ثم في إطار الزهد، إلى أن أصبحت نهجاً روحياً، له مقوماته وخصائصه المستقلة. وأصبح الشعر وسيلةً فنيّة عميقة التآثر بالمحيط الذي يعيش فيه. ولعل، أول شعر وصل إلينا يعبر عن اتجاه التصوف في القرن الثاني تلك المقطوعات الروحية العميقة التي شدّت بها رابعة العدوية<sup>١</sup> في أوائل هذا القرن ومما روى من أناشيدها هي التي تقول من خلالها:

يا سُرورى ومنيّتى وعمادى	وأنيسى وعُدّتى ومُرادى
أنتَ روح الفواد، أنتَ رجائى	أنتَ لى مؤنسٍ وشوقك زادى
أنتَ لولاك يا حياتى وأنىسى	ما تشنّتُ فى فسيح البلاد
لَمْ بَدَتْ مِنَّةٌ وكم لك عندى	من عطاءٍ ونعمةٍ وأيادى

(بدوى، ١٩٧٨م: ٢٩)

بدأت رابعة تستشعر الحبّ لله، ولكن هذا الحبّ كان مسبوقة بالتوبة. فهي قد فتحت صفحة جديدة في حياتها، مغايرة لصفحتها السابقة، وهذه الصفحة كانت مزيجاً من القلق والاستغفار والشوق إلى المحبوب الذى اختارته لنفسها حيث تقول:

راحتى يا إخوتى، فى خَلَوَتى	وحبيبى دائماً فى حَضْرَتى
لم أجد لى عن هواه عوضاً	وهواه فى البرايا محنتى
حيثما كنتُ أشاهدُ حُسْنَه	فهو محرابى، إليه قبلى
إنْ أُمْتُ وجداً وما ثمَّ رضا	واَعْنائى فى الورى! واشقتوى

(المصدر نفسه: ٥٤)

١. هي أمّ الخير رابعة بنت إسماعيل العدوية البصرية مولاة آل عتيك الصالحة المشهورة. كانت من أعيان عصرها. وأخبارها فى الصلاح والعبادة مشهورة. توفيت بين سنوات ١٨٠-١٩٥ هـ.



في هذه الأبيات تستخدم رابعة أسلوب الرمز، شأنها في ذلك شأن الكثيرين من شعراء الصوفية. الحبيب الذي تتحدّث عنه هو الله تعالى ولا يمكن لها أن تجد حباً آخر عوضاً من حبه ولا يمكن لها أن تُشاهد حسناً آخر غير حسنه.

ومن شعراء الصوفية الذين قالوا في الحبّ الإلهي في أواخر القرن الثاني الهجري، ذوالنون المصري<sup>١</sup>. الذي يعدّ الرائد الحقيقي للتصوّف، وهو أوّل من تكلم عن المعرفة الصوفية مفرّقا بينها وبين المعرفة الفلسفية التي تقوم على الفكر، بينما تقوم المعرفة الصوفية على القلب والكشف والمشاهدة. وهذا قوله يخاطب ربّه ويقول:

أموتُ وما ماتتُ إليك صبايتي      ولا قضيتُ من صدق حبّك أوطاري  
مُنأى المُنَى، كلُّ المُنَى، أنتَ لى مُنَى      وأنتَ الغنى، كلُّ الغنى، عند اقتاري  
وأنتَ مَدَى سؤلى وغايةُ رغبتى      وموضع آمالى ومكنونُ أضمارى

(السلمى، ١٩٢٥م: ٢١)

وترتفع حرارة الحبّ عند ذى النون المصري، فتتهون أمامها كلّ الآلام. إنّه يُصبر ويُطيل في صبره لأنّه يحبُّ الله - عزّ وجلّ - ويتقرّب إليه ويتطلّب منه كلّ شيء. لهذا يتحوّل ألمه إلى اللذّة وحُزنه إلى السرور، فيقول:

لِمَ تَشْتَكِي أَلَمَ الْبَلَاءِ      وَأَنْتَ تَنْتَحِلُ الْمَحَبَّةَ  
إِنَّ الْمَحَبَّ هُوَ الصَّبْوُ      رَ عَلَى الْبَلَاءِ لِمَنْ أَحَبَّهُ  
حَبُّ الْإِلَهِ هُوَ السَّرْوُ      رَ مَعَ الشِّفَاءِ لِكُلِّ كَرْبَةٍ

(الأصفهاني، ج ٩، لاتا: ٣٤٥)

ثمّ يأتي بعد ذى النون المصري، أبويزيد البسطامي<sup>٢</sup>، الذي دعا لفكرة الفناء في الذات الإلهية، أى تجرّد النفس عن رغباتها وقمعها لشهواتها، مثل قوله:

١. هو إبراهيم المصري أبو الفيز، ويقال: ثوبان بن إبراهيم و ذوالنون لقب له وهو مولى لقرئش، توفي سنة خمس ومائتين. (السلمى، ١٩٢٥م: ١٥-١٦)

٢. هو طيفور بن عيسى بن سُرُوشان وكان جدّه سُرُوشان هذا مجوسياً فأسلمَ وهم ثلاثة إخوة: آدم، وطيفور، وعلّى، وكلهم كانوا زهاداً وعبّاداً وأرباباً أحوال. مات أبويزيد سنة إحدى وستين ومائتين. (السلمى، ١٩٢٥م: ٦٧)



أشارَ سَرِبٌ إِلَيْكَ حَتَّى      فَنَيْتُ عَنِّي وَدُمْتَ أَنْتَ  
مَحَوْتُ اسْمِي وَرَسَمَ جِسْمِي      سَأَلْتَ عَنِّي فَقُلْتَ أَنْتَ  
فَأَنْتَ تَسْلُو خِيَالَ عَيْنِي      فَحَيْثُ دَرْتُ فَكُنْتُ أَنْتَ

(الأصفهاني، ج ١٠، لانا: ٣٦)

ثم يرى البسطامي أنّ الإنسان عندما يصل إلى درجة المعرفة، وهي كشف حقيقة الخالق. فإنه ينصرف إليه ويتعد عن كل شيء يُشغله عنه. وفي هذه الفترة نجد يحيى بن معاذ الرازي<sup>١</sup> الذي تكلم في الرجاء وعرف الصوفي بأنه العارف بما في الباطن مخلوطا بالظاهر، وهو يصف حالة المحبّ، فإذا هو يتطلّع إلى حبيبه، وقلبه يكاد ينقطع من الشوق إليه، فيشكو إليه والقلب ينزع إلى الحبّ فيقول:

نَفْسُ الْمَحَبِّ إِلَى الْحَبِيبِ تَطَلَّعُ      وَفَوَادُهُ مِنْ حَبِّهِ يَتَقَطَّعُ  
عَزَّ الْحَبِيبُ إِذَا خَلَا فِي لَيْلِهِ      بِحَبِيبِهِ يَشْكُو إِلَيْهِ وَيَضْرَعُ  
وَيَقُومُ فِي الْمَحْرَابِ يَشْكُو بَثَّهُ      وَالْقَلْبُ مِنْهُ إِلَى الْمَحَبَّةِ يَنْزِعُ  
ويطرب ابن معاذ لهذا الحبّ ويتعجّب من الذين يلومونه على ولوعه بهذا الحبّ فيقول:

طَرَبُ الْحَبِّ عَلَى الْحَبِّ مَعَ الْحُبِّ يَلُومُ      عَجِبًا لِمَنْ رَأَيْنَاهُ عَلَى الْحَبِّ يَلُومُ  
حَوْلَ حَبِّ اللَّهِ مَا عَشْتُ مَعَ الشُّوقِ أَحُومُ      وَبِهِ أَقْعُدُ مَا عَشْتُ حَيَاتِي وَأَقُومُ  
(الأصفهاني، ج ١٠، لانا: ٦٣)

وممن له شعر في الحبّ الإلهي السّقطي<sup>٢</sup>، أحد رجال الطريقة وأرباب الحقيقة. هو الذي يحترق قلبه من لوعة الفراق والكربّ قد حال به والصبرُ قد فارقه، لا يجد مجالا للفرار ممّا يعانیه. لأنّ الذي يفرُّ منه هو ذاته ولهذا فهو يطلب من الله تعالى أن يُنعم عليه بالفرج ممّا هو به وهو على قيد الحياة، قائلاً:

١. هو أبو زكريّا يحيى بن معاذ الرازي الواعظ، أحد رجال الطريقة، خرج إلى بلخ وأقام فيها مدةً ورجع إلى نيسابور ومات بها سنة ثمان وخمسين ومائتين. (ابن خلكان، ج ٦، ١٩٤٨م: ١٦٥)  
٢. هو أبو الحسن بن مغلّس السّقطي، كان واحد أهل زمانه في الورع وعلوم التوحيد وهو خال الجنيد وأستاذه. توفي سنة سبع وخمسين ومائتين ببغداد. (ابن خلكان، ج ٦، ١٩٤٨م: ١٠٤)

والكربُ مجتمَعُ والصبرُ مفترقُ      القلبُ محترقُ والدمعُ مستيقُ  
 ممّا جناه الأسي والشوق والقلقُ      كيف الفرار على من لافرار له  
 فامنن عليّ به مادام بي رمقُ      يا ربُّ إن كان شيءٌ لي فرجُ  
 ثمّ يستخدم أسلوب الرمز فيتحدّث عن محبوبته التي تتهمه في إخلاصه للحبِّ  
 فيقول:

ولمّا ادّعيّت الحبّ قالتُ كذبتني      فما لي أرى الأعضاء منك كواسيا  
 فما الحبُّ حتّى يُلصق الجلدَ بالحشا      وتذبل حتّى لا تُجيب المُناديا  
 وتنحلُّ حتّى لا يبقى لك الهوى      سوى مقلةٍ تبكي بها أو تُتاجيا  
 (الطوسي، لاتا: ٣٥٣)

ونمضى في هذا العصر حتّى نلتقى بالجنيّد<sup>١</sup> وهو في رأس الطبقة الثانية من المتصوفة  
 الذي يرى في حبّ الله أنسَ الفؤاد والأمنية الغائية التي يتمنّاها. وكان الجنيد ممّن يطربُ  
 للوجد الإلهي فقال في الاحتراق والتعذيب:

يا مُوقد النار في قلبي لقدرتَه      لوشتَ أطفيتَ عن قلبي بك النارا  
 لا عارَ إن متُّ من خوفٍ ومن حذر      على فعالك بي لا عارَ، لا عارا  
 (الطوسي، لاتا: ٢٤٧)

ويستمرّ الجنيد في مناجاة المحبوب وهو الله تعالى فيقول: إنني لا أجدُ أيَّ عار  
 يلحق بي إن متُّ من الخوف ومن الحذر في فعل ما يغضبك. ثم يجعل من الخمرة رمزا  
 ويقول:

فلمّا جُفيتُ وكنْتُ لا أجدُني      ودلائل الهجرانِ لا تُخفي  
 وأراك تسقيني وتمزجني      ولقد عهدتُك شاربي صرفا  
 (الإصفهاني، ج ١٠، لاتا: ٢٧٩)

يعني أنني ابتليتُ بالجفاء والهجران، وكنت في الماضي لا أعرفها، وما هذه المجافاة

١. هو أبو القاسم بن محمد الجنيد الخزاز القواريري الزاهد المشهور. أصله من نهاوند ومولده ونشأته في العراق.  
 وكان شيخ وقته وفريد عصره. توفى سنة سبع وتسعين ومائتين. (وفيات الأعيان، ج ٤، ١٩٤٨: ٢٩٥)



وذلك الهجران إلا بعد تعلقي بحبك واستعدابي لكأس ذلك الحب الصافي الذي أشربه معك. وكان الجنيد يتحسّر دائما على أحواله الماضية ويتأسّف لأحواله الحاضرة. سأله أحد: علام يتأسّف المحب؟ فقال: على زمان بسط أورث قبضا، أو زمان أنس، أورث وحشة. فيقول في هذا الموضوع:

قد كان لي مشربٌ يصفو برويتكم فكدرته يد الأيام حين صفا

(المصدر نفسه، الصفحة نفسها)

وبعد ذلك نلتقي بالحسن النوري<sup>١</sup> الذي كان يعاصر الجنيد. كان النوري عارفا بالله وشاعرا يكثر في أشعاره من التعبير عن الحب الإلهي وفكرة الفناء في الذات الإلهية. فيتحدّث عن الحسرة التي تقصّر قلبه من الحبّ وابتلائه بهذا الحبّ الذي يكاد أن يقضى عليه ولا يُشفى منه إلا بقاء الحبيب وهو الله سبحانه وتعالى، قائلا:

كم حسرة لي وقد غصت مرارتها جعلت قلبي لها وقفا لبلواك  
وحق ما منك يبليني ويتلفني لأبكيك أو أحظى بلقياك

(السلمي، ١٩٢٥م: ١٥٣)

ونلتقي في هذا العصر أيضا سمنون بن عمر المعروف بالخوَّاص<sup>٢</sup> الذي قال شعرا كثيرا في المحبة الربانية وما يصاحبها من وجد لايمائله وجد وشوق، وكذلك فكرة الفناء المطلق في الله ولم تبق إلا رغبة واحدة وهي رغبات الانمحاء في الذات الإلهية، فيقول:

وكان فؤادي خاليا قبل حُبكم وكان بذكر الخلق يلهو ويمرّح  
فلما دعا قلبي هواك أجابه فلست أراه عن فنائك يبرح  
رُميتُ ببين منك إن كنت كاذبا وإن كنتُ في الدنيا بغيرك أفرح  
وإن كان شيء في البلاد بأسرها إذا غبت عن عيني بعيني يملح

١. هو أحمد بن محمد، خراساني الأصل: يعرف بابن البغوي وكان من أجلّ مشايخ القوم وعلمائهم. توفي سنة خمس وتسعين ومائتين. (السلمي، ١٩٢٥م: ١٦٤-١٦٥)

٢. سمنون بن حمزة الخوَّاص، كنيته أبو القاسم، سمى نفسه سمنون الكذاب، صحب سريّا السقّطي، وكان يتكلّم في المحبة بأحسن كلام وهو من كبار مشايخ العراق. مات بعد الجنيد. (السلمي، ١٩٢٥م: ١٩٥)

فإن شئت واصلني وإن شئت لا تصل  
فَلَسْتُ أرى قلبى بغيرك يصلح

(السلمى، ١٩٢٥م: ١٩٨)

فالحبُّ متمكِّن فيه وهو يجرى فى كلِّ عضوٍ من أعضائه حتَّى أنفاسه التى يتنفسها،  
يجرى فيها الحبُّ، فيقول:

قد دبَّ فى الأعضاء من جسدى  
ولا تنفستُ إلَّا كنت مع نفسى  
فليس لى فى سواك حظُّ  
إن كان يرجو سواك قلبى  
دبيبٌ لفظى من روحى وأضمارى  
وكلُّ جارحةٍ من خاطرى جارى  
فكيفما شئت فامتحنى  
لأنلتُ سؤلَى ولا التمنى

(المصدر نفسه: ١٩٥)

ومن تلامذة الجُنيد، أبو على الروذبارى<sup>١</sup>، وكان يقول المريد هو الذى لا يريد لنفسه  
إلَّا ما أراد الله له، يعنى تفنى إرادته فى الإرادة الإهية بحيث لا يحسَّ المريد أو الصوفى  
شيئا فى الكون سوى الله، وهو الذى يقول:

من لم يكن بك فانيا عن حبه  
فكأنه بين المراتب واقفٌ  
وعن الهوى والأنس بالأحباب  
لمنال حظٌّ أو لحسن مآب  
ويقول أيضا:

روحى إليك بكلها، قد أجمعتُ  
تبكى إليك بكلها عن كلها  
لو أن فىك هلاكها ما أقلعتُ  
حتى يُقال من البكاء تقطعتُ  
فانظر إليها نظرةً بتعطفٍ  
فطالما متعتها فتمتعتُ

(السلمى، ١٩٢٥م: ٣٥٨)

يقف أبو على الروذبارى بين يدي المحبوب، وهو الله عزَّ وجلَّ ويقول له بلغة الصوفى  
المحبِّ الذى أخلص فى حبه وتوجَّه بكلِّ جوارحه إلى حبيبه:

١. هو أحمد بن محمد بن القاسم بن منصور بن شهريار وهو من أهل بغداد. سكن مصرَ وصار شيخها ومات  
بها، صحبَ الجنيد وأبا الحسن النورى. وكان عالما فقيها، حافظا للحديث. توفى سنة اثنتين وعشرين  
وثلاثمائة. (السلمى، ١٩٢٥م: ٣٥٤-٣٥٥)





وَحَقِّكَ لَانظَرْتُ إِلَى سَوَاكَ      بَعِينٌ مَوَدَّةً حَتَّى أَرَاكَ  
وَلَا اسْتَحْسَنْتُ فِي نَظَرِي جَمَالًا      وَلَا أَحْبَبْتُ حَبًّا غَيْرَ ذَاكَ  
وَلَا اسْتَلْذَنْتُ فِي الدُّنْيَا لَذِيذًا      وَلَا لِي بَغِيَةً إِلَّا رِضَاكَ  
فَمَنْ بِنَظَرَةٍ فَضْلًا وَمَنًّا      وَبَلَّغْنَا الْمُنَى حَتَّى أَرَاكَ

(اليافعي، لاتا: ٢٠٦)

والرودباري يكثر من استخدام الرمز في أكثر قصائده. والمصطلحات الصوفية قد كثرت في شعره. والذي كان يعاصر الرودباري، هو أبوسعيد الخزاز، الذي تحدّث عن الوجد والشوق الإلهي وعن حنين قلوب العارفين إلى الذكر ومناجاتهم الدائمة، حتى يصل بهم الأمر إلى نشوة ذكر الله تسكرهم، كما يسكر السكر من الخمر، وهم عند ما تُدار كؤوس الموت عليهم تراهم يستقبلونها بشغفٍ وشوقٍ كاستقبال شارب الخمر بكأسه، فيستخدم الرمز ويقول:

حَنِينٌ قُلُوبَ الْعَارِفِينَ إِلَى الذِّكْرِ      وَتَذَكَرَهُمْ عِنْدَ الْمَنَاجَاةِ لِلسَّرِّ  
أَدِيرْتُ كُؤُوسَ الْمَنَايَا عَلَيْهِمْ      فَاعْفُوا مِنَ الدُّنْيَا كَاغْفَاءِ ذِي السَّمْرِ  
هُمُومُهُمْ جَوَالَةٌ بِمَعْسَكِ      بِهِ أَهْلٌ وَدَّ اللَّهُ كَالْأَنْجَمِ الزُّهْرِ  
فَأَجْسَامُهُمْ فِي الْأَرْضِ قَتَلِي بِحَبِّهِ      وَأَرْوَاحُهُمْ فِي الْحُجُبِ نَحْوِ الْعُلَى تَسْرَى  
(اليافعي، لاتا: ٢٠٧)

وَمِنْ أَشْهُرِ تَلَامِدَةِ الْجَنِيدِ الْحَسِينِ بْنِ مَنْصُورِ الْمَعْرُوفِ بِالْحَلَّاجِ<sup>١</sup>. صَحَبَ الْجَنِيدَ وَأَخَذَ عَنْهُ شَطْحَاتِهِ وَبَالَغَ فِيهَا وَوَقَعَ فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ أَعْلَى مِنَ الْجَنِيدِ فِي عِلْمِ التَّصَوُّفِ وَأَرْفَعُ، وَأَنَّهُ رَقِيَ مَرْتَبَةَ الْكَمَالِ. جَادَ لَهُ الْجَنِيدُ فِي فِكْرَتِهِ الَّتِي رَوَّجَ لَهَا. وَهِيَ أَنَّ الزَّاهِدَ إِذَا تَحَمَّلَ الْمَشَاقَّ وَالْآلَامَ وَظَلَّ يُصَفِّي نَفْسَهُ بِالْمَجَاهِدَاتِ وَالرِّيَاضَاتِ الْمُضْنِيَّةِ، انْتَهَى

١. هو أحمد بن عيسى من أهل بغداد. صحب ذالنون المصري وغيره وهو من أئمة القوم وجملة مشايخهم وأول من تكلم في علم الفناء والبقاء، مات سنة تسع وسبعين ومائتين. (السلمي، ١٩٢٥م: ٢٢٨)  
٢. هو الحسين بن منصور الحلاج المكنى أبا مغيث وكان جدّه مجوسياً اسمه محمّد من أهل بيضاء فارس. نشأ الحسين بواسطٍ وقدم بغداداً. فخالط الصوفية وله إلى الآن أصحاب ينسبون إليه. قتل سنة تسع وثلاثمائة لقوله: بخلول اللاهوت في الناسوت. (السلمي، ١٩٢٥م: ٣٠٧-٣٠٨)

الدرجة الرفيعة التي يبتغيها، إذ يتمثل في نفسه حقيقة الصورة الإلهية التي سواها الله فيه. وبذلك يصبح هو والحق بمنزلة سواء. وكان يقول ما رأيتُ شيئاً إلا ورأيتُ الله فيه، فيقول:

مزجت روحك في روحى كما      تُمزجُ الخمرة بالماء الزلالِ  
فإذا مسكَّ شيءٌ مسنًى      فإذا أنتَ أنا، في كلِّ حالِ

(الخطيب البغدادي، ج ٨، ١٩٣١م: ١١٥)

وتزداد حالة الوجد الصوفى عند الحلاج حتى نراه قد تحوّل إنساناً يعيش لمحبوبه فهو منتهى الغايات وكلّ الآمال، لأجله يحيى وفي سبيل رضاه يعيش وهو معه إن تحرك وإن تنفس فيقول:

والله ما طلعتُ شمس ولا غربتُ      إلا وحبك مقرون بأنفاسى  
ولا جلستُ إلى قوم أحدثهم      إلا وأنتَ حديثى بين جُلاسى  
ولا ذكرتُ محزناً ولا فرحاً      إلا وأنتَ بقلبي بين وسواسِ  
ولا هممتُ بشرب الماء من عطش      إلا رأيتُ خيالاً منك في الكأسِ  
ولو قدّرتُ على الاتيان جئتكم      سعيًا على الوجه أو مشيًا على الرأسِ

(المصدر نفسه: ١١٧-١١٨)

وكان يقول من أسكرته أنوار التوحيد. حجبته عن عبارة التجريد، بل من أسكرته أنوار التجريد، نطق عن حقائق التوحيد، لأنّ السكران هو الذى ينطق بكلّ مكنون. فلهذا، فلما أخرج للقتل خرج بتبخترٍ فى قيده ويقول:

نديمى غير منسوب      إلى شيءٍ من الحيفِ  
سقانى مثلما يشرب      كفعل الضيفِ بالضيفِ  
فلما دارت الكاسات      دعا بالنطع والسيفِ  
كذا من يشرب الراح      مع التئين فى الصيفِ

(الشعرانى، ج ١، ١٩٢٥م: ٩٣)



الزهد الاسلامي وتطوره إلى التصوف منذ القرن الثاني حتى...

وممن عاشر الجنيد وتلمذ على يديه كذلك، أبو بكر الشبلي، الذي كان ينكر على الحلاج قوله عن تجلّي الله تعالى في عبده ومخلوقاته، فالله في رأيه واجب الوجود وهو شيء ومخلوقاته شيء آخر وكان يتحدث كثيرا عن الأحوال والمقامات، وكان يُبدي ويُعيد في الحديث عن حبه ومن قوله:

إذا ما كنت لى عيدا      فما أصنع فى العيدِ  
جرى حبك فى قلبى      كجرى الماء فى العود

(المصدر نفسه: ٣٤٥)

ثم يرمز ويقول:

تغنى العودُ فاشتقنا      إلى الأحباب إذا غنى  
وكُنّا حيثما كانوا      كانوا حيثما كُنّا

(المصدر نفسه: الصفحة نفسها)

وهناك شخصيات بارزة أخرى من الصوفية لانذكر أسمائهم ونكتفى بهذه الشخصيات المذكورة.

## النتيجة

وأما الخلاصة التى نستنتجها فيما تقدّم، أنّ الزهد تطوّر شيئاً فشيئاً إلى التصوف وهذه الأبيات المذكورة تصوّر حالة الصوفية وصفاتهم التى يمتازون بها عن سائر البشر، فقلوبهم لهم عيون ترى ما لا يراه الآخرون وألسنتهم تلهج بالسر والعلانية، فيجلّ لهم ما يقولون علنا، وأمّا ما يقولون سرا فيخفى على الملائكة الموكول إليهم الكتاب ويرمزون فى أشعارهم، ورأينا ممّا تقدّمنا أنّه استخدام الخمر رمزا للحبّ الإلهي عند الصوفية قديم العهد ويرجع إلى القرن الثانى للهجرة.

١. اسمه دُلف، يقال ابن جَدر ويقال: ابن جعفر ويقال: اسمه جعفر بن يونس. هو خراسانى الأصل، بغدادى المنشأ والمولد، ويقال ولد فى سامرا، صحب الجنيد. كان عالما فقيها على مذهب مالك. مات سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة. (السلمى، ١٩٢٥م: ٣٣٧-٣٣٨)

## المصادر والمراجع

- ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد. ١٩٤٨م. وفيات الأعيان. تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد. الطبعة الأولى. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.
- الاصفهانى، أبو نعيم أحمد بن عبدالله. لاتا. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء. بيروت: دار الكتاب العربي.
- بدوى، عبدالرحمن. ١٩٧٨م. شهيدة العشق الإلهي. الكويت: وكالة المطبوعات.
- الخطيب البغدادي، أحمد بن علي. ١٩٣١م. تاريخ بغداد. الطبعة الأولى. القاهرة: مكتبة الخانجي.
- السلمي، عبدالرحمن. ١٩٢٥م. طبقات الصوفية. تحقيق نورالدين سريية. الطبعة الأولى. القاهرة: جماعة الأزهر للنشر والتأليف.
- الشعراني، عبدالوهاب. ١٩٢٥م. الطبقات الكبرى. الطبعة الأولى. القاهرة: مطبعة الأزهر.
- الطوسي، سراج الدين. لاتا. اللمع في التصوف. مصر: دار الكتب الحديثة.
- عبدالباقي سرور، طه. ١٩٥٤م. رابعة العدوية والحياة الروحية في الإسلام. الطبعة الأولى. القاهرة: مطابع دار الكتاب العربي.
- \_\_\_\_\_ . ١٩٤٨م. شخصيات صوفية. الطبعة الأولى. القاهرة: شركة ومكتبة ومطبعة البابلي الحلبي.
- اليافعي، عبدالله بن أسعد. لاتا. روض الرياحين في حكايات الصالحين. لاتا.

